أوهام

قصة جديدة
بقلم
أمينة قطب

عندما فرغ من ارتداء ملابسه كان الخادم قد أعد له طعام إفطاره الخفيف . وخرج الى الردهة وهو يفكر في برنامج الغد الذي أعده هو وبعض الأصدقاء ، لقضائه في (القناطر الخيرية) بين النيل الوادع والأرض المنبسطة الخضراء ، والأشجار السامقة المورقة. فهو يوم عطلته الاسبوعي الذي قليلاً ما يفكر في قضائه بعيداً عن بيت خطيبته..وأخرجه من تفكيره صوت كلبه (شداد) الذي يدعوه — تدليلاً — (شادي) وهو ينبح داخل حجرته بالحديقة الصغيرة ، ويحدث تلك الاصوات المختلطة العجيبة التي يعبر بها عن ضيقه وعدم رضاه عن البقاء في سجنه حتى هذه الساعة ، فلقد تأخر اليوم عن إطلاقه من محبسه ما يقرب من نصف ساعة. وخرج الى الحديقة ففتح باب الغرفة الصغيرة وانطلق شادي إلى الخارج كالقذيفة ، ثم راح يحييه تحياته الكثيرة المتعددة . فتارة يتعلق بأذياله وتارة يدعها ويهوي على الحذاء يعضه مداعباً مسلماً وكأنه يقبله . ثم يعتدل ويقفز إلى أعلى محاولاً أن يمسك يديه بأسنانه وفمه . ثم يدعه ويتقدم إلى باب الشقة بضع خطوات ثم يرتد ثانية اليه ويعيد ما فعل وهو يحدث اصواتاً مختلفة تدل على الشكوى والفرح في آن. وأخذ هو يربت على رأس كلبه مرة ويومىء له ويدعوه مرة أخرى ، وفي نفسه اغتباط ورضى بهذه التحيات الخالصة التي يقدمها له هذا المخلوق الوفي المحبوب .

وصعد الدرج القصير إلى الشقة بين كلبه وقطته (سوسو) الصغيرة الظريفة. وجلس يتناول طعامه بعد أن قدم لهما طعامهما كما اعتاد ان يفعل كل يوم قبل ان يذهب إلى اعماله ، فقد كان يجد لذة كبيرة في القيام بهذا العمل كل صباح ، ويشعر بكثير من السعادة وسط هذه الأسرة الصغيرة، كما كان يسميها. وعندما انتهى من طعامه خرج مسرعاً بعد ان اوصى الخادم بألا يدع باب الحديقة مفتوحاً حتى لا يخرج شادي إلى الطريق العام . وكان يكرر هذه التوصية للخادم كل يوم قبل خروجه حتى لقد حفظها الخادم وبات يجيبه قبل أن يكمل الفاظها . ومع ذلك فقد كان يحس أن لا بد له من تنبيه الخادم كل يوم حتى لا يصاب كلبه المحبوب بسوء . فهو على الرغم من مضي سبعة أشهر على وجود شداد ، لا يزال مهملاً أخذ(رخصة) له تعصمه من أولئك الوحوش الآدميين الذي يزهقون أرواح العشرات من هذه المخلوقات الوفية ، ما دامت لا تحمل تلك القطعة البرونزية الصغيرة التي تهبها الحياة !. واعتزم في هذا اليوم ان يتغلب على إهماله ومشاغله ويسعى سريعاً في ترخيص كلبه العزيز . ثم مضى يفكر في أعماله المتعددة التي تنتظره والتي لا يكاد يفرغ منها الا لماماً . .

وفي القطار الذي كان يقله من الضاحية إلى مقر عمله، جلس والقى برأسه إلى الوراء على حافة المقعد الجلدي الوثير ، وأغمض عينيه نصف إغماضة ثم ما لبثت بعض صور حياته وأحداثها ان تواردت على ذهنه وخاطره . .

ترى هل كان يتصور يوم مات والده وتركه ينوء بحمل العبء وحده ، أنه سيصل في يوم من الايام إلى هذا اليسر في العيش ، بل هذه الرفاهية التي يحسده عليها كثير من أصدقائه الذين لم يصادفهم النجاح كما صادفه ؟... لقد توفي والده وهو في سنته النهائية في الجامعة، وكانت صدمة عنيفة لآماله الواسعة وعواطفه الجياشة. ولكن الشباب كان يملأ نفسه بالأمل والطموح . ومضى في طريقه يشجعه عطف والدته ويخجله امام نفسه كلما تمردت وضاقت بالعبء الثقيل . وكانت دعوات والدته الحنون تملأه رضى وتنير أمامه الطريق الوعر المملوء بالصعاب .

وعندما أنهى مهمته وأكمل تعليم إخوته كان سعيداً لأنه لم يتخاذل ولم يطع نغزات الشيطان الذي كان يوسوس له بأن يدعهم وشأنهم يشقون طريقهم في الحياة كيفما يشاؤون ، حتى لا يضيع شبابه وعمره سدى .. وعاش مع امه فترة اخرى بعد ان تفرق إخوته في المراكز والقرى بحكم وظائفهم . ولكن الموت لم يدع له ذلك السند القوي الذي كان يعصمه من زلات نفسه وأحاسيسه ، إذ اختطف والدته فجأة من حياته فخلت من كل نور ومن كل انيس .

وانقضت ايام الحزن الاولى ثقيلة مريرة ، ولكنها انقضت كما ينقضي كل شيء . وبعد ان كان يحس انه لن يستطيع العيش وحيداً أخذت نفسه تألف الجو الخالي من شخص امه

شيئاً فشيئاً . وراح طيفهـــا يتوارى من البيت قليلاً قليلاً . وأخذ الظل الحبيب يبتعـــد عن حياته كلما مرّت الأيام ثم الشهور ...

وأخذ يبحث عن شريكة لحياته تؤنسه وتملأ فراغ نفسه ، وتعيد الى البيت بهجته وضيـاءه . غير ان اطماع نفسه وشغفـه بالمال الذي حرم منه طوال ايام كفاحه في تعلـــيم إخوته ، جعلته يبحث بين العائلات الكبيرة التي تتمتـع بالجاه والمال . وطال بحثه حتى رضيت به احدى بنات هذه العائلات .

ومضى عام على زواجه كان يحس في خلاله ان السعادة قد تبدت له سافرة بغير حجاب ، وقد حط عن كاهله أعباء الماضي وسواد الأيام . غير ان القدر لم يدعه ينعم بسعادته طويلا. فقد عاد من اوربا قريب لزوجته يحمل شهادة عالية ، وسرعان ما عين في وظيفة كبيرة وغدا ذا مركز ممتاز . وراح يتردد على بيته ويقضي فيه بعض أوقات فراغه. ولم يكن هو راضياً عن هذا ولكنه سكت عـــلى مضض. وشيئاً فشيئاً تكشفت له نيات زوجته ونيات قريبها . انها تريد الطلاق منه لانه غير كفء لها ولعائلتها ! لقد ثارت كرامته فانفصل عنها بعد غضبة عاتية.. ومرت العاصفة وألفى نفسه وحيداً كئيباً . وأظلمت الدنيا في نفسه اياماً وشهوراً . ثم صحا لينتقم بعد ان علم بزواج مطلقته من قريبها . صحا ليحصل على المال ويحصل على المركز اللذين كانا السبب في تقويض سعادته . فاستقال من وظيفته وكوّن هو وبعض اصدقائه ، وأحد الأجانب شركة لأعمـال الهندسة والبناء ، وراح يعمل ليلًا ونهاراً ، وينتقل من نجاح الى نجاح وامتلأت جيوبه بالمال ، وغدا ذا مركز مرموق ، بعـــد ان استقل ببعض الأعمال التي تدر الربح بغير حساب . ولم يلبث ان خطب لنفسه فتـــاة اخرى يشغل والدها منصباً كبيراً. ورغم صغر سنها بالنسبة له فان صديقاتها يحسدنها عليه لما ستتمتع به من نعيم ورفاهية. وبعد اسبوعين فقط سيعقد قرانه بعد ان يكون بناء (فيلتّه) الأنيقة قد تم وكمل تأثيثها تأثيثاً يتناسب مع مركزه وماله . ولسوف يمضي في أعماله المتعددة حتى تبلـــغ ثروته المبلغ الذي يريد ، فلقد تعلم ان المال هو الطريق الى كل شيء ، ولا شيء سواه ، وغدت هذه فلسفته التي يدعـــو اليها اصدقاءه ولا يعبأ بما يوجه اليه من لوم أو عتب على جشعه الذي ينعاه عليه بعض الأصدقاء ..

وتنبه عـــلى صوت صفـــير القطار عندما اقترب من محطته ، ثم استعاد في ذهنه كلمات صديقه بالأمس ، تلك الكلمات التي هزت ضميره رغم سخريته بها ، وتساءل في شيء من الحيرة : ترى أهو على حق أم صديقه الذي اتهمه بالجشع ودعاه الى ان يعود الى مثله العليا التي كان يؤمن بها عندما كان طالباً صغيراً، ويضع له فلسفة اخرى غير التكالب على جمـــع المال الذي لن يأخذ منه شيئاً معه عندما يترك الدنيا ويمضي ؟ وقبل ان يجيب على سؤاله وقف القطار فنهض مسرعاً ومضى بخطوات سريعة الى الخارج ، ثم ركب سيارته التي كانت في انتظاره. ثم اندمج في الجماعات والسيارات المسرعة في اجتياز الطريق .

وفي اثناء عودته ابتاع بعض انواع الفطائر لكلبه كما تعود ذلك في كثير من الاحيان إذ كان شادي يقبع خلف باب الحديقة منتظراً إياه ، فما يكاد يلمحه او يشم رائحته حتى يهب واقفاً ويقفز ثم يهبط في حركات متتابعة والسرور باد في عينيه الصغيرتين المعبرتين ، حتى يصل هو إلى الباب ويتقبل منه تحياته الكثيرة المتعددة التي تبهج نفسه وتنسيه متاعب اليوم .

وعندما وصل الى الباب ألفاه مفتوحاً، ولم ير «شادي» بجانبه منتظراً . فمضى الى الداخل مسرعاً وناداه بصوت عال كي يتأكد من وجوده داخل البيت . ولكنه لم يلمح له خيالاً ولم يسمع له صوتاً يدل على وجوده داخل المطبخ . وسأل الخادم المنهمك في انجاز الطعام فأخبره انه كان هناك في الحديقة ، فعاد الى الحديقة يفتش في انحائها ويدعوه وقد تبعته قطته تموء وتتمسح برداءه . فلما لم يجده في الحديقة مضى الى الشارع ليبحث عنه بالقرب من البيت وهو موقن انه سيجده في مكان ما ، كما كان يحدث في قليل من الاوقات . ولكن عينيه لم تلمحاه في اي مكان من الاماكن التي اعتاد ان يراه فيها. فوقف لحظة حائراً، ولكن حيرته لم تطل إذ رأى على البعد ، بعض الصبية يقفون عند ناصية الطريق القريبة من مكان وقفته ، ويلتفون حول بقعة من الارض . فأوجس خيفة ومضى كلمح البرق الى هنـاك . فرأى « شادي » في المكان ، ولكنه جثة هامدة مخضبة بالدم ! وفغر فاه دهشة وجزعاً . ومضت لحظة وهو واقف وكأنما قد سمر في مكانه . ثم افاق من ذهوله وانطلق الى البيت . وما ان بلغه حتى زم وجهه بين يديه في حركة عصبية وهو يجهش بالبكاء في صوت محتبس مكتوم . وبقي على هذه الحال فترة غـــير قصيرة ، وكان خادمه في الداخل قد فرغ من إعداد المـائدة

وجاء يبحث عنه في الحديقة حين لم يجده في حجرته. فما ان أبصر هو به حتى تمالك نفسه وقال في سخرية مرة « ألم أقل لك الف مرة لا تدع الكلب يخرج في غيبتي حتى نصنع له رخصة ؟ لقد قتل . » ووقف الخادم لحظة ذاهلاً مشدوهاً. فأمره في استسلام ان يحمل جثة « شادي » لكي يدفن في حديقة البيت . واذعن الخادم للأمر . ورآه بعد برهة مقبلاً يحمل الجثة بين يديه ويجهش بالبكاء في غير تماسك ولا عزاء ، وقد اخذ يهدد ويتوعد اولئك الوحوش الذين قتلوه . وأحس هو كأن الدموع قد جمدت في عينيه فما عاد يستطيع ان يبكي ، ولكن صوته الغائر العميق وهو يأمر الخادم بان يعدّ لكلبه العزيز قبراً ، كان يبدي ما غمر نفسه من حزن وهمود . ولم يلبث ان تلفت في غير وعي ، في ارجاء الحديقة باحثاً عن شادي ، وهو امامه مغمض العينين غارقٌ في السبات والسكون ؟ وسمعت أذناه حركة ، حل الشقة احدثتها القطة في إحدى اواني الطعام ، فالتفت كذلك ، وقد اندفع الى ذهنه ان كلبه هو الذي احدث تلك الحركة داخل البيت ! فحواسه لم تصدق بعدُ هذا الحدث ، وما تزال الصور الحية تحتل مكانها في ذهنه وخياله وإحساسه .

وعندما فرغ خادمه من إعداد المكان وامسك بالكلب يلفه في قطعة من القماش كيما يواريه التراب ، احس ان تماسكه المصطنع ينهار ولم يعد قادراً على الاصطبار . واذا بيديه ترتعشان واذا به يضم الكلب بين يديه وهو يهزه كمن يوقظه ، ويدعوه والدموع تنهمر من عينيه ، وفمه يهمهم بألفاظ لا تبين . ووضعه في حفرته الضيقة وبدأ يحثو عليه التراب ، ولكن يديه لم تطيعاه فهب واقفاً وغادر المكان وهو يغمر وجهه بمنديله ، حتى وصل الى حجرته ثم اطلق لنفسه العنان . واخذ يبكي كمن فقد وحيداً عزيزاً . وقد راحت الصور المقبلة تتراءى له من خلال دموعه . انه لن يذهب بعد اليوم في الصباح الى غرفة شادي ليفتح له الباب ، ولن يراه يمرق من الفتحة الصغيرة ويهوي على قدميه وهو يشكو طول حبسه ، ثم يقفز ويثب الى يديه يعضهما بأنيابه برفق وشوق ، بينما ترتسم في عينيه الصغيرتين انفعالات ومعان كثيرة . ولن يقوده في المساء الى غرفته ويغلق من دونه الباب خوفاً عليه من الزمهرير . ولن يقدم له افطاره بعد اليوم ويقف ليشهد ما يحدث بينه وبين قطته من نزاع ، يتسلى هو بجسمه حيناً وتقويته احياناً . ولن ينتظره شادي عند عودته الى البيت فرحاً متهللاً ويزجي له التحيات الحارة المخلصة . ولن يسمع صوته بعد اليوم ابداً ، ينبح كلما اقبل طارق لا يعرفه او اقترب من البيت مخلوق . كل هذه الصور والحركات قد ذهبت وأهيل عليها التراب وكأنما لم تكن يوماً ، او كانت وهماً من الاوهام !

وأقبل المساء وعقله يكاد يتمزق بين الخيال والصور التي لم تغب بعد عن عينيه ، وبين الحقيقة الثابتة المفزعة التي تتمثل في سكون البيت ووحشته وخواء الحديقة من صوت شادي وحركته . وخرج هارباً من نفسه وخياله وأحاسيسه ، إلى منزل صديق له كان يعرف ان عدداً من الصحب يجتمعون عنده ويمضون سهرتهم هناك والتقى في منزله ببعض صحبه الذين كان يزمع ان يقوم معهم بنزهة الغد. فأخبرهم بعد فترة من الوقت بما حدث ، معتذراً بعد هذا عن الاشتراك معهم في رحلتهم. ولكن صحبه لم يوافقوه على رأيه وأخذوا يحاولون إقناعه بالذهاب معهم لكي يروح عن نفسه . وسخر احد الموجودين من حزنه على كلبه ، وأخذ يقارن بين موت هذا الحيوان الحقير وبين موت الأعزاء من الأحياء . ثم ضحك ساخراً ايضاً عندما علم انه قد دفن كلبه في الحديقة بالقرب من جدار حجرته ، وقال له وهو يضحك « الا تخاف ان تشم رائحته بعد حين ؟ » فامتلأت نفسه بالألم والاشمئزاز وأهمل الاجابة عنه . ثم ترك الجمع كله بعد ذلك وعاد ادراجه الى البيت بعد ان تجول في الطرقات على غير هدى .

وفي طريق عودته الفى نفسه يفكر فيما قاله ذلك الساخر منه « الا تخاف ان تشم رائحته بعد حين » ، وانصرف ذهنه الى حقيقة هائلة مروعة كان ينساها ، او كان لا يفكر فيها ابداً وهو يمضي في زحمة الحياة ومطامعها . يالله ؟ كل جسد تفارقه الحياة يصير بعد ايام معدودات ، جثة عفنة تنبعث منها الروائح الكريهة التي لا تطيقها انوف الاحياء ، حتى ولو كانوا من اقرب المقربين اليه وأشدهم تعلقاً به ؟ . اية حقيقة مفزعة هذه ، وأي وهم مضحك هذا الذي يعيش فيه الاحياء دون ان يشعروا او ينتبهوا ؟ لم هذا الجهد المضني وهذه الأطماع الهائلة وهذا التكالب المميت ، وهذه نهايتهم جميعاً بغير تمييز ولا استثناء ؟

وملأت جوانحه سخرية مرة من نفسه . كم من الليالي قد سهرها يكدّ ذهنه ويبعثر قواه لكي يجمع المال ويكدسه ليصير غنياً ! أي شيء سيصنعه في النهاية بهذا الغنى الذي داس

عدد خاص بالقصة

تستهل « الآداب » سنتها الثانية في مطلع عام ١٩٥٤ بعدد ضخم خاص بالقصة ، يحرره كبار كتاب القصة والجيل الجديد من الأدباء في مختلف البلاد العربية ، وسيضم هذا العدد الممتاز أقاصيص ومسرحيات عربية وأجنبية ودراسات ضافية عن فن القصة في الشرق والغرب ومجموعة من القصائد الشعرية القصصية الخ . . . وستنشر فيه كذلك نتائج مسابقة القصة .

عدد « الآداب » القصصي : سجل حافل لأحدث النتاج القصصي في الشرق والغرب .

١٠٠ صفحة بالسعر المعتاد

من أجله على ضميره وعلى عواطف الخير في نفسه فامتنع عن مساعدة اقرباء له هم في أشد الحاجة اليه ، لكي لا يبعثر ماله الذي تعب وشقي في جمعه! ما الذي سيأخذه معه من كل امواله وعقاره عندما يمضي في لمحة ، كما مضى كلبه ، ويصير جثة هامدة عفنة تعافها الأنوف ؟

ووصل الى البيت خائر القوى مهدود الأعصاب . وعندما لمس جرس الباب اندفعت الى خياله صورة كلبه من الداخل ، يستعد للقائه وتحيته . وفتح له الخادم ، فراعه الفراغ الذي يملأ ارجاء البيت ، وكأنما كان يتصور ان ما حدث كان حلماً عابراً وان كل شيء سيعود عندما يعود هو الى البيت . . ونظر الى ساعته فاذا هي العاشرة . إنه الموعد الذي كان يذهب فيه مع شادي لكي يدخله حجرته لينام . وكادت أعصابه ان تتمزق مرة اخرى ، فبالأمس في مثل هذه اللحظة كان كلبه العزيز حياً ، وكان هو يدعوه للذهاب الى النوم ، دون ان يدري أو يخطر بباله هذا المصير الذي ينتظره بين يوم وليلة . . ان الصور لواضحة تكاد تتجسم امام عينيه ، ولكن اين شادي الآن ؟ لا شيء هناك . أي وهم عابر وأي سخرية كبرى ، وأي مأساة تلك التي يتشبث بها الأحياء ويحاولون القبض عليها بكل قواهم وهي تنطلق من بين اصابعهم كما ينطلق الهواء ؟

ومضى الى النوم علّه يرحم عقله ونفسه ، ولكن الصور العديدة لكلبه راحت تتمثل امام عينيه فلا يستطيع النوم ان يحسرها عن خياله وفكره المكدود ، حتى مضى من الليل اكثره . . وفي الصباح ايقظه بائع اللبن بدقه المتواصل على الباب . واستيقظت معه الصور العديدة وراحت تتمثل له من جديد . وخيل اليه انه سيسمع نباح شادي من خلف باب حجرته المغلق ، كما كان يفعل كل صباح ، ولكن الصوت لم ينبعث من وراء الجدران . .

وارتدى ملابسه بعد قليل وهو يتلفت بين لحظة واخرى دون وعي منه ، كي يرى «شادي» يتبعه من مكان الى مكان ! ووقف يتناول شيئاً من الطعام وهو يحدق في فضاء الغرفة الكئيب . واخذت قطته تتمسح بكم ردائه وتدور حول يديه . فدفع اليها بقطعة من الطعام دون ان يلقي باله الى شيء من حركاتها . لقد ماتت في شعوره فما عاد يهتم بحركاتها ومداعباتها . ووقف برهة يفكر اين يذهب . انه لا يريد اليوم ان يذهب الى اي مكان من الاماكن التي اعتاد الذهاب اليها في ايام عطلته ، حتى خطيبته لا يشعر اليوم انه يريد رؤيتها او الذهاب الى بيتها . وخطر له خاطر مفاجيء ما لبث ان ارتاح له . انه سيذهب لزيارة قبر والديه فقد مضى ما يقرب من ثلاثة ارباع العام ولم يزرهما . لقد شغلته مصالحه واعماله الكثيرة وبناء بيته الجديد ، عن هذه الزيارة ، وكانت امه توصيه قبل رحيلها ، ألا يهمل زيارة قبرها عندما تذهب اليه بعد حين!

وهبط الدرج في بطء وتثاقل . وتنهد في أسى حزين وهو يتطلع من بعيد الى غرفة كلبه المفتوحة الصامتة الخاوية . واسرعت خطواته الى الطريق . وبعد لحظات كانت العربة الصغيرة ذات الجوادين ، تنطلق به مُيَمِّمَة شطر التلال المقفرة المنقطعة عن الاحياء والضجيج . وتراءى له كل شيء ، الناس والحيوان ، والمباني والاشياء ؛ صوراً عابرة واطيافاً شاردة ، وظلالاً متراقصة في الهواء . وكأنما كان يمر بحلم سريع . .

القاهرة — **امينة قطب**